أدونيس

" لست حيث أنت ، بل حيث لا أنت
لا فى النوم بل فى الأرق "
يسأل نفسه :
من أنت أيها السيد
وأنا لا أنا وأنت لا أنت
أستودعها أسرارى وأتصارع معها
أرى نفسى فيها وأشهر عليها حروبى

ديوان
(مفرد بصيغة الجمع)

okeikandi.com

obeikandl.com

عندما بكى أدونيس فى المقهى(*)

سأقيم سياجًا حول البكاء ، وسأمنع نفسى من النظر إلى صورته ، تلك التى تثبت اللحظة العاطفية حتى يمكننى الكتابة عن شىء أكبر من البكاء . . أظنه كان وراء انفجار أدونيس أمام الجمهور المصرى فى المقهى الثقافى داخل معرض الكتاب .

شىء بين الرماد والورد ، بين العداوة والمحبة ، لحظة من قبل أن تضىء القلب ، أضاءت مشهدًا ثقافيًا خاليًا من الإنصاف !

كيف استطاعت ثلاث ليال هى كل زيارة أدونيس للقاهرة أن تفجر كل ذلك الارتباك الحاد . . سؤال بحاجة إلى مراجعة المشهد .

فى اليوم الأول كان على أدونيس أن يواجه موقف شعراء التسعينيات بمصر من مشروعه الحداثى . . كان رأى الشاعر أسامة الديناصورى المنشور فى عدد « أخبار الأدب » المخصص للشعر المصرى : أول من ينتظره . . « لا أستطيع قراءة أدونيس نهائيًا » .

إنه الموقف المتكرر لدى الأجيال الجديدة من الشعراء ، والتى لم تعد ترى فى حداثة أدونيس سوى قيمة كلاسيكية . .

فى الصباح التالى كان الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى يواصل هجومه النارى ، على صفحات جريدة الأهرام ، حول تجربة

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ١١/ ٢/ ١٩٩٩م .

أدونيس، « وتسخير كل القوى والمؤسسات وأجهزة الإعلام والكتب والجامعات بالداخل والخارج لها » . وفى ظهيرة اليوم نفسه فى ندوة معرض الكتاب « خمسون عامًا من الشعر الحديث » والتى شارك فيها أدونيس أيضًا . . كان حجازى يفضح زيف الادعاء الذى يجعل من حركة « **مجلة شعر** » بداية رائدة للشعر الحديث ، هاجم حجازى التجربة الأدونيسية وشكلية الثقافة اللبنانية غير المسموح لها بإحداث تغيير بالمجتمع ، تحدث عن محاولات تكريس « جماعة شعر » كحركة رائدة أولى واستند فى تأكيد كلامه إلى تدليس رسالة الدكتوراة لكمال خير بك، فى تجاوزها ومرورها العابر على رواد حركة الحداثة الشعرية بمصر والعراق وتكريسها فقط لريادة « جماعة شعر » .

بدت قذيفة حجازى مغالطة قاسية حيث تقتصر رسالة كمال خير بك - كما يكتب صاحبها فى صفحاتها الأولى على دراسة حركة « مجلة شعر » فقط كنموذج !

بين عنف حجازى الرائد ، وعنف شعراء التسعينيات ، واجه أدونيس أيضًا انفضاض شعراء السبعينيات جميعًا عنه ، هم الذين التفوا حوله لسنوات طويلة كأبرز ظاهرة شعرية عربية حديثة - فى رأيهم - تشيعوا له، وانتسبوا إليه حتى سموا يومًا « الأدونيسيين » . . غابوا جميعًا خلال تلك الزيارة . . غابوا عن اللقاء معه والحفاوة به ، وغابوا عن الندوات الثلاث التى أقيمت لأدونيس بالمعرض ، باستثناء الشاعرين عبد المنعم رمضان ومحمد سليمان اللذين اكتفيا بحضوره الندوة الأخيرة بالمقهى الثقافى ، وتغيبا عن حضور الندوتين السابقتين !

كان الانحسار واضحًا وملموسًا ، وكان المناخ عدائيّاً داخل القاهرة الكبيرة . . تباعد المثقفون ، وتلاشى الاهتمام والحفاوة . . فقط أطلت المصالح واستقبلته المؤسسات والهيئات الرسمية . .

فى الصباح الثالث كان صوته محشرجًا من فعل الأتربة والغبار ، وربما أيضًا الارتباك والضيق . . اعتذر أدونيس عن إجراء حوار لأخبار الأدب ، لعدم قدرة صوته على الكلام ، لكنه فاجأنى بالسؤال : كيف هى صورتى فى القاهرة ؟

قلت : ملتبسة !

قال : كيف ؟

قلت : ثمة قضايا خلافية عديدة ، أظنها غير واضحة لدى الجمهور المصرى ، أولها موقفك من التطبيع الثقافى مع إسرائيل - تلك القضية الجوهرية فى الثقافة المصرية . . أيضًا عداؤك للقومية والعروبة .

قال : وهل هذه تهمة ؟

قلت : ربما . . إنك تجابه شعبًا بأكمله لا يعرف كيف يمكن لإنسان أن يكون غير قومى (لم أشأ تذكيره بوصفه للوحدة المصرية السورية «بعصر الحذاء الذهبى» أو وصفه للمصريين بغربان أفريقيا الجائعة . .) أيضًا تحولاتك السياسية من « القوميين السوريين » إلى الماركسية إلى الناصرية إلى . .

قاطعنى هذه المرة بحدة : حددى الوقائع حتى لا أُتهم بالشائعات ، فليس لدى سوى تجربة حزبية

واحدة فى بداياتى ، وغادرتها . . غير ذلك هى بضعة آراء أو مواقف ماركسية كانت أو ناصرية . . صمت قليلاً ثم أضاف : هل تظنين الخروج جزيمة ؟

قلت : بالتأكيد لا . . هو قيمة إيجابية . . لكن حين يكون الخروج علينا نحن ، فمن حقنا فقط أن نجابه خروجك . .

لم يغضب أدونيس من تلك الأسئلة الاستفزازية ، بل وعد بإرسال إجاباته صريحة وواضحة عبر الفاكس فور عودته إلى ألمانيا ، بينما رحت أؤكد أن الاختلاف معه أو حوله ، هو قيمة ، هو أول من يدركها ويطالب بها . . رحت أكرر احترامى له كشاعر كبير ، كررتها كثيراً وكأنى أعتذر عن عدم إفصاحى عن محبته .

فى ظهيرة اليوم نفسه كان ثمة شىء دافئ وعاطفى داخل المقهى الثقافى . . هذه المرة يواجه أدونيس الجمهور المصرى محاطًا بأصدقائه الحميمين إدوارد الخراط ، عدلى رزق الله ، عبد المنعم رمضان وسعيد الكفراوى الذى قام بتقديم أدونيس إلى الجمهور . . كان «سعيد» سخياً فى محبته ، صادقًا فى انفعاله ، لكنه بالغ . . بالغ حتى جرح الانفعال « إذا سألت أى طفل فى أى قرية مصرية لمن تقرأ ؟ سيجيبك فى كبرياء : أقرأ أدونيس » .

لم يسيطر أحد على الانفعال . . فكان البكاء العادل . . البكاء المحتج على خطأ الانفعال وخطأ الحوار ولغة التخاطب ، ولعل بكاء أدونيس الاستثنائى ، والذى لم يعرفه طوال حياته - كما ذكر - هو تقدير للقاهرة التى رآها هى المدينة العربية الوحيدة التى تجاوزت التكوين القبلى

والطائفى والريفى . . والتى نراها نحن قادرة دائمًا على تصويب الحوار، والتى لا يحق لها إلا أن تكون عادلة .

تحدث أدونيس بصفاء ذهنى ورؤى مبدعة . . لكنه ضاعف من قضايا الخلاف والاختلاف . . تحدث عن مفهومه الجمالى للقصيدة البعيدة تمامًا عن كل شروط اجتماعية أو تاريخية . . تحدث عن مفهومه لشعر «المقاومة» من حيث هو مقاومة للذوق البليد ، وليس مقاومة للقمع والسلطة . . رفض أدونيس قصيدة « البندقية » مدافعًا عن قصيدة «الوردة» ؛ فهو لا يؤمن بأن الشعر يخدم قضية .

نفى أدونيس القصيدة السياسية والقصيدة الأيديولوچية وقصائد القضايا الكبرى ، من حيث هى مفهوم وظيفى للشعر وموقف تقليدى ، حذف فيه الشاعر الممدوح القديم ليضع القضية أو الأيديولوچيا مكانه .

تحدث أدونيس عن مؤتمر غرناطة ، الذى أقامته اليونسكو حول ثقافة السلام (٨ - ١٠ ديسمبر ١٩٩٣) ، وشارك فيه مفكرون إسرائيليون ووزير الخارجية الإسرائيلى شيمون بيريز وشارك فيه أيضًا عشرون كاتبًا عربيًا . . تحدث أدونيس عن كلمته بالمؤتمر ، عن الهوية الثقافية العربية الإسلامية ، وعن انتماء إسرائيل جغرافيًا إلى المنطقة العربية التى تقوم ثقافتها على أساس التمازج والتنوع . . أكد أدونيس أنه مع السلام ضد الحرب ، ولكنه نفى أنه طالب يومًا بالتطبيع مع إسرائيل . . فقد كان دائمًا ضد التطبيع الثقافى داخل الثقافة الواحدة . . فكيف له أن يطالب بالتطبيع بين ثقافتين مختلفتين !

أسئلة عديدة وخلافية لكن الأهم دائمًا - وذلك درس المقهى - هو القدرة على تصويب الحوار . . كيف نصيغ السؤال بجدية تحترم المناقشة وتحترم الآخر . . كيف نجابه المختلفين معنا وكيف نواجه كبارنا ؟

* * *

obeikandl.com

أدونيس بالفاكس :
لابد من إعلان الحرب علىّ !(*)

حين فاجأنى أدونيس بالسؤال عن صورته فى القاهرة . . تداخلت الأسئلة المثارة حوله منذ سنوات وتشابكت الصور الملتبسة ، وكانت محاولاتى للاقتراب تأخذ شكل الاستفزاز وتنطق بكل ما هو مسكوت عنه .

لم يغضب أدونيس . . وبرغم اعتذاره عن إجراء حوار « لأخبار الأدب » بسبب إرهاقه الصحى ، اقترح على كتابة تلك الأسئلة ليقوم بالرد عليها عبر الفاكس .

أكرر كان الأمر اقتراحًا من أدونيس . . فحوار الفاكس في رأيى - ليس حواراً أو هو حوار من طرف واحد ، غير مسموح فيه بالمناقشة أو التدخل أو التوضيح أو التعليق . . إنه الحوار السلطوي القامع .

اقترح أدونيس الإجابة بالفاكس ، ثم قام بالاتصال التليفونى بالجريدة للاطمئنان على وصول إجاباته وتأمين نشرها اللائق دون اختصار ودون تدخل . . ثم أرفق كل هذا بتعقيب متوتر :

(اسمحى لى أخيراً - يا سيدة عبلة - أن أقول لك .. عندما قرأت أسئلتك ، شعرت كأننى أمام رقيب فى الشرطة « لكنه قام بشطب العبارة الأخيرة وكتابة عبارة أخرى » شعرت كأننى أمام لائحة اتهام .. وسؤالى

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ٢١/ ٢/ ١٩٩٩م .

البسيط الذى أوجهه بدورى لك .. لماذا يتكلم معظم كتابنا بلغة «المتهم» بدلاً من أن يتكلموا بلغة « القارئ ») !

ولا تعليق من جانبى على هذا المستوى من التعقيب !

ولأن صياغة الأسئلة تمت بشكل تلقائى ، دون ترتيب أو إعداد مسبق وبسرعة فرضت الاختصار والإشارة ، فلم أكن بحاجة إلى درس التصويب الأدونيسى « الشكلى » فعندما أتكلم عن قصيدة « ملوك الطوائف » فمن البديهى أنى أتكلم عن قصيدة « مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف » دون حاجة إلى عناء أدونيس فى التدقيق .

لم يمنحنا الفاكس فرصة الحوار أو المناقشة الحقيقية ، ولم يمنحنا المناخ العصبى ، الذي استقبل فيه أدونيس عدد « أخبار الأدب » السابق حول زيارته الأخيرة للقاهرة ، والذي وصفه بالهجوم العاصف - فرصة كتابة الحوار أو أية محاولة لإيضاح الصورة .

فقط ثمة إجابات لم تمتلك الصفاء الكافى حول بعض الأسئلة المثارة .

ليظل الالتباس قائمًا

والاختلاف عميقًا . . .

. . . . . .

- حركة شعر .. لماذا تأخرت ريادتها الشعرية عن العراق ومصر .. والبعض يرى أن الريادة الشامية مثل الثقافة اللبنانية هى ثقافة شكلية خارج التاريخ ، غير مسموح لها بتغيير الواقع ؟

لا تعنينى « الريادة » فى ذاتها ، إطلاقًا . يعنينى « محمول » هذه الريادة ، وكيفية رؤيتها . فى التاريخ « ريادات فنية » ليست لها أية قيمة فنية ، وكانت القيمة كلها فى ما جاء بعدها . مَن الأول ؟ هذا سؤال

لا تمكن الإجابة عنه ؛ خصوصًا أن الإبداع الكتابى استئناف وليس «بداية» بالمعنى الشائع فى أوساطنا الأدبية .

كل عمل عظيم هو فى جوهره ، استئناف . . جلجامش ، الأوديسة ، التحولات (لأوفيد) والكوميديا الإلهية ، ألف ليلة وليلة ، هاملت ، دون كيشوت . . إلخ .

« الأول » إبداعيّاً سلسلة بلا نهاية من « الأوائل » . . أما فى ما يتعلق بالحكم على الثقافة اللبنانية بأنها « ثقافة شكلية » ، فأكتفى بالقول إننى لن « أتهم » الذين يطلقونه بأنهم أعداء للبنان ! وبأن لهم الحق والحرية فى قول آرائهم مهما كانت !

- ليست مسألة إقليمية ولكن ذائقتك الشعرية تدفعك للدفاع أكثر عن الشعراء الشوام « أنسى الحاج/ الماغوط » بينما قد تنظر بسلبية للشعراء القوميين وللخطاب السياسى فى الشعر ؟

لا أظن أننى دافعت عن الشعراء الشوام ، كما تعبرين ، أكثر مما دافعت نوعيّاً لا كميّاً عن شعراء مصر .

فلقد نشرت لشعراء مصر البارزين كلهم فى مجلة « مواقف » وليتك تقرأين ذلك ، أو تسألينهم .

ولم يكتب شاعر من جيلى عن صلاح عبد الصبور ، كما كتبت . هل قرأت ما كتبت عنه ؟

وأكرر هنا أننى لا أقيم تماهيّاً بين الشعر والبلد ، أو الأمة ، فإذا قلت الآن ليس هناك شعر عظيم فى العراق ، أو سوريا ، أو لبنان فلا يعنى

ذلك أننى أكره هذه البلدان ، أو أننى أنفيها ، كما أنفى الشعر العظيم عنها على افتراض ذلك .

وما أقوله عن هذه البلدان ينطبق على مصر وعلى البلدان العربية كلها . . ليست « الأمة » هى التى تكتب القصيدة ، وإنما يكتبها فرد بعينه ، ونقدها إيجابًا أو سلبًا ينحصر فيها وفى صاحبها . ولا يجوز أن نسحبه أو نعممه على « الأمة » .

أما عن الخطاب السياسى المباشر فى الشعر . . فقد كنت دائمًا ولاأزال ، ضده سواء كان مصريّاً ، بشكل خاص أو عربيّاً بشكل عام . . أقول ضده شعريّاً لا ضد قائليه . . فأنا أكن احترامًا كبيرًا للشخص ، بوصفه شخصًا ، وهو احترام يشمل حتى من يطرحون أنفسهم بوصفهم أعداء لى ، فلم تصدر عنى فى حياتى كلها كلمة تسىء إلى الأشخاص ، مهما كانوا عتاة فى التهجم على . . فأنا أكن احترامًا كبيرًا للشخص البشرى فى ذاته ولذاته . بوصفه إنسانًا مخلوقًا على صورة الخالق - أيّاً كانت آراؤه واتجاهاته ، وأدافع عن شرفه وكرامته دفاعى عن نفسى بالذات .

- لماذا ترفض الأيديولوچية والقومية ، برغم أن تكوينك المعرفى مبنى على احترام الآخر ؟

أرفض الأيديولوچية لأنها حجاب على الواقع ، وحاجز يحول دون المعرفة الحية والشاملة . فهى كما أرى نوع من تجهيل آخر . . . ذلك أنها معرفة مسبقة سلفًا ويقينية سلفًا ، وتسفه غيرها سلفًا . عدا أنها تعليمية تبشيرية ، وتحول الفن إلى مجرد أداة لخدمة السياسة .

أما عن القومية ، فأين رأيت فى كتاباتى أننى « أرفض القومية » كما تقولين ؟

أرفض الشعر الردئ الذى يتكئ عليها ، ويستغل العواطف المرتبطة بها لهدف أو آخر ، وأقول تبعًا لذلك لا يصح تقويم الشعر ، فنيّاً بـ «قوميته» . . يجب أن يقوّم الشعر بفنيته ، لا باتجاهه أو بموضوعاته ، فالقضية العظيمة لا تجعل من شعر ردئ يتكلم باسمها شعراً عظيمًا . لا يخدم القضايا العظيمة إلا شعر عظيم .

ثم إن من يرفض قوميته يرفض نفسه : هل ترين أننى أرفض نفسى ؟

- قلت إن الهوية هى المستقبل وان حدها الأدنى « الإقليم » . تحتاج هويتك إلى وضوح أكثر وإيضاح خاصة فى ضوء موقفك السلبى من (القومية) (والعروبة) وموقفك السلبى أحياناً من التراث العربى والإسلامى، وأيضاً تعدد آرائك السياسية من القوميين السوريين إلى الماركسية إلى الناصرية ؟

ليتك تحددين لى « سلبية » مواقفى هذه ، وأين تتجلى فى كتاباتى وكيف ؟ دون ذلك ، تظل هذه الأقوال مجرد تأويلات ، أقل ما يقال فيها إنها غير صحيحة ، وأعطيك أمثلة على ذلك ؛ أى على تهافت مثل هذه التآويل فيما يتعلق بالتراث أولاً .

كيف يمكن لمن كتب « **مقدمة للشعر العربى** » مع «ديوان الشعر العربى» الذى صدر فى ثلاثة أجزاء » ، وهى الدراسة النقدية العربية الأولى ، (وأقول ذلك دون تواضع كاذب) التى نظرت إلى الشعر العربى القديم برؤية حديثة ، واضعة إياه فى منظور الشعر الكونى أن يكون موقفه سلبياً من التراث ؟

ثم إننى أصدرت بعد هذا الكتاب كتبًا أخرى فى دراسة تراثنا ، تكشف عن جوانبه الجمالية والفكرية والإنسانية المضيئة ، مثل : «**كلام البدايات**» ، و « **الشعرية العربية** » و « **النص القرآنى وآفاق الكتابة** » ، و« **الصوفية والسوريالية**» .

كيف يمكن لمن كتب هذه الدراسات فى تمجيد الشعر العربى والفكر العربى أن يكون موقفه من التراث سلبيّاً ؟ اللهم إلا إذا كان يقصد بالسلبية موقفى من مظاهر العنف والطغيان فى تاريخنا السياسى ؛ فقد انتقدت وأنتقد هذه المظاهر ، منتقداً فى ذلك بنى السلطة التى تمارسها ، فهل علىّ أن أمجد هذه المظاهر وأدافع عنها ؛ لكى يقال عنى إن موقفى من التراث إيجابى ؟

أما فيما يتعلق بآرائى السياسية أو العامة ، ثانياً ، فإن من « التهم التى وجهت إلىّ الناصرية والماركسية والخمينية فى آن واحد فكيف يمكن مثلاً أن أكون ناصرياً وأصف الوحدة المصرية السورية » وهى (**وحدة ناصرية**) بأنها (**عصر الحذاء الذهبى**) أو أصف المصريين بأنهم (**غربان أفريقيا الجائعة**) ؟

وكيف أكون ماركسياً وأكون فى الوقت ذاته مناصراً للأنظمة الدينية ؟

إن موقف شاعر أو كاتب أو مفكر من قضايا عصره ، ومن الأفكار والاتجاهات بعامة لا يجوز أن يؤخذ من جملة تنتزع من سياقها ، وتؤول اعتباطيّاً ، وإنما يجب أن يؤخذ من مجمل كتاباته فى نواتها الأساسية ، وفى سياقها العميق الأخير . دون ذلك يمكن أن تنتزع من كتابات أى كاتب جملة أو أكثر ، ويتهم على أساسها بأنه شيوعى بينما هو قومى ، أو قومى بينما هو شيوعى ، أو شرقى بينما هو غربى أو العكس ،

أو روحى بينما هو مادى ، أو العكس . . لا يعود هناك أى ضابط أو مقياس معرفى أو أخلاقى فى قراءة النصوص وتأويلها ، وإنما يصبح التأويل كيفياً تمليه العداوات أو الصداقات ، أو تمليه الصراعات والمصالح .

هكذا ترين كيف أن التأويلات التى ليس لها ضابط معرفى وأخلاقى ، يمكن أن تشوه أشخاصًا ، أو تشوه كتبًا وأفكارًا ، وكيف يمكن على العكس فى حالات أخرى وهى كثيرة عندنا ، أن تعلى من شأن أشخاص غير جديرين ، أو أن تضفى قيمًا على كتب لا قيمة لها .

أما الهوية فصحيح أننى أقول إن الانتماء الإقليمى أو بالولادة هو حدها الأولى .

لأقل أن للهوية كما أرى مستويين :

يتصل الأول بنشأة الإنسان وانتمائه .

ويتصل الثانى بعمله وصيرورته .

يكشف الأول عما هو طبيعى ومعطى ، دون أى خيار أو تدخل أو إرادة من الإنسان .

ويكشف الثانى عما هو مكتسب ، عما هو خلق ، وإذًا عما هو إشكالى ، يقوم على اختيار الإنسان وتدخله وإرادته .

يبقى تحديد هوية الإنسان فى المستوى الأول ، أولياً يشير إلى الالتصاق بالطبيعة وبالمعطى ، شأن بقية الكائنات الحية .

غير أن الإنسان ينفصل عن الطبيعة خالقًا مسافة هى مسافة التاريخ ، حين يحدد هويته فى ضوء المستوى الثانى . . . وفى هذا المستوى يخرج الإنسان من أوليته لكى يفتح أفقًا ، ولكى يكون معنى ، وفى هذا ما يشير

إلى أن الحيوان لا تاريخ له ؛ لأنه يظل فى « أوليته » ملتصقًا بالطبيعة غير قادر على الانفصال عنها بينما الكائن الإنسانى يخلق بالضرورة . . بضرورة تميزه إنسانيّاً مسافة بينه وبين الطبيعة . ومن هنا يكون له تاريخ بدءاً من هذه المسافة ذاتها .

وعلى هذا لا تكمن حقيقة الهوية الإنسانية فى مجرد النشأة والانتماء، وإنما تكمن على العكس فى الفكر والعمل والصيرورة ؛ فالإنسان لا يرث هويته بقدر ما يخلقها أو لنقل بعبارة ثانية : لا يشكل الجانب الوراثى فى الهوية إلا مستواها « الطبيعى » . . فالهوية الإنسانية إبداع مستمر وصيرورة متواصلة ، فالإنسان يخلق هويته فيما يخلق فكره وعمله .

- لماذا تقرأ دائمًا (ملوك الطوائف) فى الندوات ، برغم انتمائها للمعنى والرسالة التى تناقضه فى مشروعك ؟

تقصدين قصيدة « **مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف** » ؟ لكن اسمحى لى أولاً أن أقول لك إنك لا تحضرين المناسبات كلها ، التى ألقى فيها شعراً لكى تصدرى هذا الحكم ، وأذكرك للمناسبة بأننى لم أقرأ هذه القصيدة منذ عشر سنوات على الأقل .

واسمحى لى ثانيّاً أن أقول لك أننى أستغرب قولك بأن مشروعى مناقض للمعنى والرسالة ؟ وأتساءل أين تجىء مثل هذه الأحكام ، وإلى أى شىء تستند؟ وما تقولين إذًا فى معظم قصائدى « **الصقر** » والقصائد الخمس فى « **كتاب القصائد الخمس وأبجدية ثانية** »؟ بل ماذا تقولين فى معظم شعرى ؟

طبعًا لا أقيم أى تماه على أى مستوى ، بين القومية و « النظام » و«المؤسسة» أو أى تماه بين « الأيديولوچية » و « الشعب » أو « الحياة » أو «الفكر» .

وإذا كنت ضد هذا النظام أو ذاك أو ضد هذه المؤسسة أو تلك - حزبية كانت أو دينية - فهذا لا يعنى أننى ضد « القومية » . . وإذا كنت ضد هذه الأيديولوچية أو تلك . . فهذا لا يعنى أننى ضد الشعب أو الوطن .

هذه بدهيات تتجلى فى أبسط قراءة لشعرى ، ولكن يمكن أن أناقض معنى ما أو «رسالة» ما ، إنما لا أناقض المعنى بإطلاق أو الرسالة بإطلاق .

- تحدثت عن قيمة الحداثة فى تأسيسها للكلاسيكية بالنظر إلى حداثتك الشعرية .. هل ترى أنك أصبحت كلاسيكياً كما يرى الكثيرون ؟

طموح كل حداثة شعرية حقيقية هى أن تصبح كلاسيكية : أى أن تندرج شعريتها فى الشعرية الكلاسيكية ، وتصبح جزءًا عضوياً من قيم اللغة الشعرية .

ولئن أصبحت حقاً كلاسيكياً فذلك أمر يسعدنى كثيرًا . . إذ بهذا أكون قد دخلت فى النسيج الجمالى الشعرى للغتنا العربية .

الشعراء المحدثون فى تاريخنا (أبو نواس ، أبو تمام . . إلخ) نبذوا ، بادئ الأمر باسم القيم الكلاسيكية ثم أصبحوا بقوة إبداعهم وشعريتهم كلاسيكيين .

وهذا ما يصح قوله على الشعراء فى اللغات الأخرى رامبو الحديث ، ولو تريامون الحديث ، ومالارميه الحديث وبودلير الحديث وريفيردى

الحديث تمثيلاً لا حصراً لا أسمى غير الشعراء الفرنسيين . . . هؤلاء أصبحوا جميعاً كلاسيكيين - بقوة إبداعهم وبشعريتهم .

شكراً للذين يسموننى كلاسيكياً ، فأنا شخصياً أرى أن الجانب التجريبى فى شعرى لايزال يحول دون أن أصبح كلاسيكياً .

- وهل ترى أن الكلاسيكية هزيمة لمشروعك المتجدد دائماً أو انحساراً له ؟

كيف تكون الكلاسيكية « هزيمة » ، وهى نهاية كل حداثة حقيقية ؟ لا حداثة على الإطلاق لا فى لغتنا العربية ، وإنما فى جميع اللغات إلا إذا كان يجرى فيها بشكل أو آخر ، نسغ كلاسيكى كل حداثة لا يجرى فيها نسغ كلاسيكى ليست إلا ورقًا يابسًا وغباراً من الكلام .

ثم إن علينا قبل هذا كلة ، أن نجلو الالتباس الهائل فى حداثتنا الشعرية العربية ، وهو التباس يكاد أن يحولها إلى أضحوكة ، يتمثل هذا الالتباس فى حصر هذه الحداثة فى تغيير مظهر القصيدة فى مجرد البناء التفعيلى ، أو فى مجرد الخروج على هذا البناء .

والأساس هو ما يهمل كلياً : الأساس هو : ما يقول هذا البناء أو هذا « الخروج » وكيف يقوله ؟

بعبارة ثانية كل حداثة لا تصدر عن رؤية جديدة للحياة والإنسان والعالم عبر رؤية جديدة لجمالية اللغة ، التى نكتب بها ولتاريخها الجمالى والحضارى لا تكون ، لا يمكن أن تكون ذات قيمة ، وسوف تلفظها اللغة ذاتها التى تقولها .

- بماذا تفسر الحضور الطاغى لأدونيس طوال الثمانينيات فى مصر ثم انحساره خلال التسعينيات (انحسار الظاهرة الأدونيسية) .. هل يشعرك ذلك بالمرارة ؟

على العكس ، أجد فى ذلك ظاهرة من الحيوية .

لابد من إعلان الحرب علىّ خصوصًا من قبل الشباب والأجيال الأدبية الطالعة . . لكن عليهم أولاً لكى ينجحوا فى هذه الحرب أن يعرفوا « عدوهم » معرفة حقيقية ، عبر نصوصه ذاتها ، لا عبر الأقاويل والتأويل الشائعة ، والتى لا تليق لا بالشعر أو بالفكر . . تصورى كيف كان سيبدو شعرنا ، لو لم يحارب أبو نواس وأبو تمام الشعر الذى كتب قبلهما - محاربة فنية وفكرية ؟ ولو لم يحاربا بدورهما ولو لم يُحارب المتنبى ؟ ولو لم يحارب المعرى ؟

كان سيبدو سطحًا رتيبًا كمثل الصحراء . . غير أنه أصبح بفضل هذه «الحروب» جغرافية هائلة من الجبال والغابات والأودية والسهول والفضاءات والكواكب .

كلا . . لا أشعر بالمرارة وعلى العكس أشعر بالحلاوة : أشعر أننى لا أزحزح إلا لأنى أزحزح . . الشاعر الذى لا يخلق مشكلة الذى « يرضى » الجميع ، لا يمكن أن يكون الشعر راضياً عنه .

* * *

تأويل الغبطة(*)

فـى أمسية شعرية ناجحة بدار الأوبرا المصـرية ، شارك عازف العود العـراقى نصـيـر شـمـة ، أدونيس فى صـيـاغـة الغـبطة ، تلك التى كـان بالإمكان الإمساك بها بعد أن غمرت الجميع .

كان المساء جميلاً . .

يكفى أن يلتقى الشاعر بجمهور يتذوق قصيدته ويتجاوب معها . . يكفى أن تكتمل العلاقة ، دون حاجة لتفـسير العذوبة وتأويل الغبطة . .

لكن أدونيس المفـتـون بالقـراءة ، يحـرص على التـأويل ومـلاحـقـة الدلالات والأحكام . . يحرص على الإمساك باللحظة لتثبيت الحكم وإثباته . . فيقدم بزاويته الأسبوعية بجريدة الحياة تحت عنوان «القاهرة التى علمتنى» قراءته لجمهور الأمسية ، واكتشافه المغاير .

على حين يقـدم أدونيس نفـسـه (كوعد) ، وقصـيدته (كاحتـمال) وشاعريته (كسؤال) . . يتكلم عن الجمهور بكثير من الثقة والاطمئنان والمزيد من الأحكام الإطلاقية . . حيث لغة الجمهور (إنجاز)، و(يقين)، و (جواب) و (اكتمال) . .

من أين له بكل هذه الثقة وذلك اليقين ؟ . .

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ١٦/ ٤/ ٢٠٠٠م .

من أين له بذلك المعيار اللغوى ليطمئن إلى أحكامه ؟ . . من هو ذلك الجمهور (الكلى) ، (المتجانس) ، والذى يمكن الحديث عن لغته الكاملة والمكتملة فى عصر الاستنساخ الآلى وهيمنة الصورة ؟

خضع أدونيس فى تحليله لظاهرة الجمهور الشعرى لفرضية ذهنية أقامها وسكن إليها . . فالجمهور (المصرى والعربى عمومًا خارج أمسيات أدونيس الشعرية) هو فى عمومه جمهور سياسى أيديولوچى ، لا يتصل بالفكر بوصفه سؤالاً ، ولا يتصل بالإنسان بوصفه وجودًا أو مصيرًا ، ولا بالكون بوصفه كشفًا ومعرفة . . جمهور قضاياه سياسية وهواجسه أيديولوچية ، وهو بالضرورة مستلب الوعى مغلوب على أمره، محاصر داخل مساحة ضيقة ، فرضتها وقامت بتعميمها السياسات والأيديولوچيات ؛ بحثًا عن امتلاك الجمهور وتوظيفه لحسابها الخاص . . تلك الصورة العامة هى الصورة السائدة للجمهور العربى (كما فرضتها السلطات والسياسات ، وكما سلم بوجودها لسنوات طويلة أدونيس نفسه) . .

ومع الأمسية الشعرية فى دار الأوبرا بالقاهرة ، وربما قبلها مرات نادرة فى أمسيات محدودة ، اكتشف أدونيس خطأ الصورة وتبسيطها . .

اكتشف ويكتشف دائمًا فى أمسياته تحديداً ، أن ثمة جمهورًا خارج السياسة وبمعزل عن الأيديولوچيا ، جمهور خارج التطريب الإنشادى التقليدى - برأيه - جمهورًا صافيًا خالصًا للشعر وللقصيدة . . هنا يقع أدونيس فى خطأ المشهد بأكمله ، حين يبدأ من موقف متعال يفصل ويتعسف ، يفاضل ويمايز . . فالجمهور المنفصل عن القصيدة الأدونيسية

والمنفض عنها هو (جمهور سياسى أيديولوچى) يحركه الشعار ويطربه النشيد . . والجمهور المتصل بالقصيدة الأدونيسية المتجاوب معها هو (جمهور شعرى) ؛ أى إن الجمهور (غائب) شعرياً فى الحالة الأولى ، (حاضراً) بالضرورة فى الحالة الثانية . .

وهو تعال يضع أدونيس كمرجعية للجمهور ، دون أن يكون الجمهور مرجعية له . . وهى أيضًا قراءة تحتقر الجمهور ، حين تمتلك السياسات والأيديولوچيات إدراجه دائمًا ضمن برامجها وتحركاتها واستخداماتها ، بينما هو الكتلة الصماء المنطوية الخاضعة المغلوبة . . !

فى ظل غياب الجمهور عن القصيدة الأدونيسية ، يقبل أدونيس بسهولة تفسيرات السلطة وسطوتها فى صناعة الصورة ، ومحاولة امتلاك الجمهور وتوظيفه . . وفى قبوله هذا اعتراف ، بل وإسهام مؤكد فى تكريس تلك الصورة (الزائفة) . . فليس ثمة مجابهة لفساد الصورة وليس ثمة حديث أو ممارسة لصواب العلاقة مع (الجمهور) . . إننا أمام علاقة فوقية وجمهور متلقى دائمًا ، دون قدرة حقيقية على تأسيس (حوار) فاعل هو جوهر العلاقة وصوابها .

خضع أدونيس دائمًا لثبات الصورة (المفروضة والمفترضة) واختار لتجربته المركزية فى الشعر العربى منهجية القطيعة والانفصال ، محتفظًا بفاعليته داخل دوائر النخبة ومناهضًا فكرة (الجمهور) لحساب فكرة (القارئ) .

لكن أدونيس يختلف ويعاود القراءة فمع حضور الجمهور فى الأمسيات الأدونيسية ، يراجع أدونيس مفهومه للجمهور بمكر شديد ،

فيتحول الجمهور (الذى كان سياسياً) إلى جمهور كاشف ، متجاوب ، محتف بالشعر الخالص . . وهو تحول لا أظنه يستند إلى تحولات حقيقية لدى الجمهور ، بقدر ما يستند إلى استخدام أدونيس لآليات السلطة نفسها فى محاولة امتلاك الجمهور واستخدامه وتوظيفه لصالحه ولحسابه الشخصى . .

ومع محاولات أدونيس لرصد تحولات الجمهور ، استناداً إلى خبرة الأمسية الشعرية ، التى أقامها بنجاح فى القاهرة (وهى خبرة مؤقتة وعاطفية) . . يعود ليؤكد بصورة إطلاقية لغة الجمهور اليقينية . . تلك الإطلاقية التى لم تعد تحتملها القصيدة ، مثلما لم يعد يحتملها الواقع أيضًا . . كما أن فكرة (الجمهور) التى عاد أدونيس ليلح عليها مرة أخرى ، هى فكرة تتحدى تراثه النظرى وحداثته الشعرية القائمة على معاداة الجمهور (ابن التراث الشفهى) وتأسيس علاقتها مع (القارئ) . .

هنا يمكننا السؤال . .

ترى لو قرأ أدونيس (بالأمسية) قصائده الأخرى ، والمؤسسة جمالياً على فكرة الحوار مع (القارئ) لا (الجمهور) . . هل بالإمكان الحديث عن حضور الجمهور ؟

وإذا انفض الجمهور عن الأمسية ، هل كان يمكن لأدونيس رصد (شعرية) الجمهور فى مقابل (تسييسه) . . ؟

قدم أدونيس ٣ قصائد فى أمسية دار الأوبرا . . هى قصائد أيديولوچية تستند إلى مواقف سياسية . . بل إن قصيدة (كافور) والتى يستعيد

خلالها عذوبته الشعرية الأولى هى تحديداً تشكل موقفًا ناصعًا لا يمكن قراءته بعيداً عن السياسة وبمعزل عن الأيديولوچية . .

هل يمكننا الادعاء بأن جمهور الأمسية تجاوب مع تلك القصائد؛ لأنها تتماشى مع هواجسه السياسية والأيديولوچية (سلبًا أو إيجابًا) ؟ . . وهل يمكننا القول أن قصيدة أدونيس نفسها هى أول من يناهض صوره الذهنية التى يحرص على الإقامة فيها . . فليس ثمة قصيدة تمتلك ذلك الفصل الحاد والوهمى بين الجمالى والسياسى . . ليس ثمة قصيدة خارج الأيديولوچيا . . ليس ثمة قصيدة تمتلك ذلك الاستقلال الذاتى بعيداً عن كل شروط الواقع ومفرداته ، فلا توجد قصيدة تؤكد بهذا المعنى فراغها . . حتى قصيدة أدونيس ، هى قصيدة أيديولوچية وسياسية خاضعة لنمط الإنتاج الشعرى والمعرفى القائم . . وهى أيضًا جزء من بنيان الجمهور الشعرى الموروث . . أما تحولات الجمهور وإمكانية تغييره فهو موقف ثقافى ، بحاجة إلى شروط اجتماعية وسياسية وجمالية عميقة لابد من توافرها ، ليقوض حقيقة وجود جمالى قائم فى الوقت نفسه ، الذى يؤسس فيه وجودًا آخر مناقضًا ومختلفًا .

* * *